الطفل هو والد المفكر

"خارج المكان" نموذجا

د. عدوان نمر عدوان

جامعة النجاح الوطنية -فلسطين

الملخص

يهدف البحث إلى إيجاد علاقة بين نظرية إدوارد سعيد الاستشراق وسيرته الذاتية "خارج المكان" من خلال تتبع المظاهر الأبوية في سيرته كما تتجلى في التربية الكولونيالية التي أريد له أن يتمثّلها، وما أحدثته من أثر قاس في نفسية الطفل إدوارد، ووجد البحث علاقة خفية ربطت بين الطفل والمفكر، فما كرهه الطفل في مراحله الأولى وجد صداه في كره سعيد المفكر لكل ما هو أبوي وتسلطي واستشراقي فيما بعد.

الكلمات المفتاحية: استشراق، مقارنة، نظرية، سيرة ذاتية، كولونيالية، أبوية، عقلانية، إمبريالية، السلطة، الصهيونية، اللاعقلانية.

تمهيد

"الوطن بمعناه العميق ما أنا مستبعد عنه" إدوارد سعيد

إن قراءة إدوارد سعيد في "خارج المكان"1 تضع الوعي إزاء تساؤل ضروري عن العلاقة بين نتاج الأديب أو الناقد أو السياسي أو المفكر وسيرته الذاتية أو البئر الأولى التي استقى منها وزود روافده ؟ فهل يمكن فصل سعيد المفكر المتمرد صاحب أطروحة الاستشراق عن سعيد الطفل الخارجي اللامنتمي من خلال سيرته أم يمكن الوصل بينهما؟

من المعلوم أن سعيدا تأثر بالمفكر الفرنسي "ميشيل فوكو" الذي فضح آليات السلطة في إنتاجها لمصطلحات المركز والعقلانية في مقابل الهامش وغير العقلاني، فمن الذي يحكم على الهامش؟ إنه المركزية، ومن الذي يسم الناس بوصمة الجنون؟ إنه العقلاني بل إن العقلاني صاحب سيرورة معارضة وصراع وسيطرة ويجب قهر سلوك بعض المرضى بكامله، وهزم ادعاءاتهم، وترويض نزقهم، وكسر التشنج بالتشنج، فالمستشفى حقل مؤسسي يتعلق فيه الأمر بالانتصار والخضوع، والطبيب هو الذي يستطيع إدراك حقيقة المرض بفضل ما يعرفه عنه وبواسطة السلطة التي تمارسها إدارته على المريض ذاته، وكل الإجراءات والتقنيات التي تمارس على المريض من عزل واستنطاق واستحمام ومعاملات معنوية ونظام صارم وما إلى ذلك علاقات إذلال وامتلاك وترويض وعبودية، والسلطة التي يعطيها مستشفى الأمراض العقلية للطبيب "سيد الجنون"يجب أن تبرر وأن تتقنع بقناع السلطة الأولية الفائقة2 ويخلص فوكو إلى أن السجن يمثل المكان الذي تمارس فيه السلطة ببذاءة وتبرج في شكلها الأكثر

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/536

تقليدية والأكثر وقاحة والأكثر صبيانية، وبأنها تبرز في حالتها العارية وتبرز سلطة أخلاقية ذات نظام، والسجن ومركز الجنون نماذج ميكانزمية السلطة المتقلصة إلى وضع مثالي بحيث يدخل الفرد في نظام فاعل يخضع نفسه فيه بنفسه[3]–إذا فالهامشي والمجنون والسجين صناعة المركز والعقلاني[4].

تلقف سعيد هذه الفكرة وطورها وفعّلها وربطها بواقعه من منطلق فلسطينيته الحادة، فما المركز إلّا الثقافة الإمبريالية الاستعمارية، وما الهامش المنحرف غير العقلاني إلّا المستعمر المسلوب الإرادة، فالثقافة الإمبريالية تفرض أنماطا من ثقافة المقولات النمطية المعلبة عن الشرق المتخلف على جميع الأصعدة والنواحي، والحضور الإمبريالي في نهاية المطاف سواء أكان عسكريا أم اجتماعيا... إنما هو تمثل لهذه الثقافة([5])

بل إنه كان مشكلا لمعنى الثقافة في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، والنتيجة المهمة من ذلك أن الشرق ليس شرقا كما هو جوهر الأصل، إنما هناك صورة للشرق كونتها الثقافة الاستشراقية الغربية مازال الغربيون يلوكونها وينقلون عدواها إلى المشرقيين.

الشرقي لاعقلاني، فاسق، طفولي وفي المقابل فإن الأوروبي عقلاني، متحل بالفضائل، ناضج سوي؛ لذا نما افتراض في القرن التاسع عشر والقرن العشرين بأن الشرق وكل ما فيه بحاجة إلى دراسة تصحيحية غربية، وعوين الشرق بمنزلة أدنى من الغرب، وأطر كما لو كان في قاعة التدريس أو في المحكمة الجنائية أو بالسجن، أو في دليل موجز لأغراض التحليل المدقق والدراسة والمحاكمة والتأديب أو الحكم[6].

ودون فهم لهوية الاستشراق بوصفه إنشاء فلن يكون في الوسع فهم الطريقة التي استطاعت الثقافة العربية أن تتدبر الشرق بل حتى أن تنتجه سياسيا واجتماعيا وعسكريا وعقائديا وعلميا وتخيليا في مرحلة ما بعد التنوير بل ليس في وسع إنسان يكتب عن الشرق أو يفكر فيه أو يمارس فعلا متعلقا به أن يقوم بذلك دون أن يأخذ بعين الاعتبار الحدود المعوقة التي فرضها الاستشراق على الفكر والفعل، وبكلمات أخرى فإن الشرق بسبب الاستشراق لم يكن وليس موضوعا حرا للفكر أو الفعل[7].

لقد استشرق الغرب الشرق من خلال حقول المعرفة بالشرق، وكانت النتيجة أن بات الغرب يمارس من خلال هذه المعرفة قوته وهيمنته على الشرق متقمصا هيئة راع غربي نشط يعرف ويسيطر أو يسيطر؛ لأنه يعرف على رعية شرقية مستكينة: الغرب فاعل subject والشرق واقع عليه الفعل object. وهذا النشاط المعرفي يمثل أسوأ أنواع الاستشراق على الإطلاق، إذ يصبح الاستشراق فيه وظيفة يستخدمها الآخرون من السياسيين وغيرهم كعدسة أو كترتيب يرى الغرب الشرق من خلاله على أنه شرقه تاريخيا حتى يبرر لنفسه توجيهه والسيطرة عليه بالطريقة التي يراها مناسبة من خلال ركيزتين: الركيزة الأكاديمية، فالباحث الأكاديمي تتمتع أقواله بالمصداقية، ومن

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/536

خلال ركيزة الخيال حيث صاغ المستشرقون صورة الشرق بخيال جعل هذه الصورة تبدو وكأنها تمثيل أو انعكاس خفي للواقع فأين الشرق إذا ؟ إنه مغيب لا هوية له ولا وجود له، فيقسم في غيابه ويتفاوض عليه وهو مبعد [8].

"خارج المكان" نص مجابه في الجملة والتفصيل

هذه السيرة وليدة الارتياب، أولا: ارتياب داخلي من خوف إدوارد سعيد من ذوبان نفسي خارج مكانه لا سيما بعد ملازمة مرض اللوكيميا له، فهو بحاجة ماسة إلى وطن داخلي يؤكد انتماءه وذاته، وقد كان تأليف الكتاب عونا حاسما لإدوارد في مقاومة المرض "كانت مواعيدي مع هذه المخطوطة تمدني بتماسك وانضباط ممتعين ومتطلبين معا"[9] وفي مكان آخر من السيرة يعلن عن أهمية السيرة لتكون سجلا ووثيقة لعالم مفقود.

"هذا الكتاب هو سجل لعالم مفقود أو منسي. منذ عدة سنوات تلقيت تشخيصا طبيا بدا مبرما، فشعرت بأهمية أن أخلف سيرة ذاتية عن حياتي في العالم العربي، حيث ولدت وأمضيت سنوات دراستي التكوينية"10

وثانيا: ارتياب خارجي اجتماعي سياسي فقد قالوا عنه "فلسطيني" لانتقاصه اجتماعيا وسياسيا وشحنوا هذه العبارة بدلالات سلبية، وأنشبوا أظفارهم الإعلامية الصهيونية فيه ومن هنا جابه إدوارد سعيد المؤسسة الصهيونية في أميركا وحارب عن جيش جرار دعايتهم التي تؤكد حق امتلاك فلسطين عامة والقدس خاصة، فجاء هذا الكتاب ليؤكد الوجود الفلسطيني التاريخي فيها، الوجود الذي يبغي الصهاينة طمسه.

خارج المكان سيرة جاءت تؤكد الوجود الفلسطيني في القدس، وتؤكد حقهم التاريخي المهدد فيها، وهذا ما دفع الصهاينة إلى تجنيد أحد مروجيها في أمريكيا للخروج على الجماهير وادعاء أن إدوارد سعيد وعائلته لم يعيشوا في القدس ولا علاقة لهم بها، إضافة إلى وصف سعيد ببروفيسور الإرهاب من على المنابر الإعلامية، ومن هنا نؤكد أن سيرة إدوارد سعيد هي وليدة لحظة الخوف والقلق والارتياب من الذوبان والتهميش والنسيان، ألم ينس في هذا العالم أقوام ؟

إدوارد سعيد وهو يسترجع ذكريات القدس كان يسترجع نفسه المهددة بالموت والموت الجماعي للقدس وفلسطين، فمع كل حجر وبيت وحارة من حارات القدس ذكرها سعيد كان يبني في داخله قلعة محصنة، لقد أدرك سعيد أن القلاع حين تسقط تسقط من الداخل من أهلها المنهزمة نفوسهم، لذا أصر على بناء قلعته الداخلية حجرا حجرا ومع كل بناء نفسي أتى عليه سعيد كنا نشاهد القدس العتيقة ونتصور حاراتها وأزقتها في مشاهد درامية، فالقدس التي رسمها سعيد قدس قوية جميلة، وبرأيي الشخصي كانت قدس سعيد مرآة حقيقة عكست نفسيته وعكست بئره الأولى في أسمى تجلياتها، ونجح في تقديمها نجاحا عجزت عنه المؤسسة الإعلامية الرسمية الفلسطينية.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/536

يلاحظ المرء منذ عقود حين يستمع إلى وسائل الإعلام العربية عداء مسعورا للدول الغربية يتزايد يوما بعد يوم حتى أصبح عداء دينيا أيديولوجيا فلا يستغرب، إنما الاستغراب الأكيد في العداء المستشري المحتدم الذي يكنه سعيد للمنظومات الغربية وإمبراطورياتها الثقافية الاستعمارية، وهو المثقف الذي تربى تربية كولونيالية ذوقا وعلما ولغة، إن الغريب في إدوارد سعيد، كما يذكر في المقدمة، أنه عربي أدت الثقافة الغربية–ويا لسخرية الأمر– إلى توكيد أصوله العربية.

مما وثق عرى الاتصال عندي بين أعمال سعيد النقدية وهذا العمل الإبداعي ذلك الحبل المتين من البغض الشديد الذي يكنه للمنظومات الأبوية الاستعمارية، فسعيد المفكر المعروف يكتب بالإنجليزية، ويعيش في الغرب ويدرس فيه فاضحا أساليبه وكارها أنظمته، وسعيد الطفل البريء يدرس في المدارس الكولونيالية ويكره أساليبها ويفضح انحيازاتها وأبويتها الاستعلائية ولا يتوقف الأمر عند ذلك، بل نلمح كرها لتصورات والده البطريركية الذي يدعوه للانخراط بلا هوادة في هذه المدارس والكليات والجامعات. وإننا نلمح أن سعيدا المفكر قد تغذى من حبل سري يصله بسعيد الطفل، وكأن هذا الطفل الخارجي اللامنتمي هو والد غير بيولوجي للمفكر سعيد الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، وكأن هذه السيرة الطفولية هي انعكاس صادق لسعيد المفكر الواعي الذي انحاز فيها للأمور والأحداث والتصورات التي تناسب تفكيره وهو شيخ كهل، وسواء هذه أم تلك فإننا نجد تواطؤا معينا بين الحياتين، هذا التواطؤ قائم على معادلة بسيطة هي معادلة (الأنا) (والهو) وقد تمتد (الأنا) لتصبح فيما بعد (النحن) وقد تتضخم (الهو) لتغدو (الهم) أو الآخر الأبوي المتسلط.

دائرة (الأنا) تلم شخص سعيد وشخصيته وأجواء الأم الأليفة الحميمية والوطن بكل امتداداته العربية والإسلامية والمشرقية، وإلى هذه الدائرة يكون سعيد منتميا انتماء حميميا لا هوادة فيه.

دائرة (الهو) تلم الأشخاص المعادين له وعلى رأسهم المدارس الكولونيالية وأجواء الأب المعادية المكروهة والغرب بكل ما هو موطن استعماري، وإلى هذه الدائرة يكون سعيد لامنتميا كارها لتلك الأدوات الأبوية كرها شديدا.

لكن علينا أن نتذكر حقيقة مهمة وهي أن سعيدا وهو يفكك آليات السلطة الأبوية أو الاستعمارية إنما يفككها بأدواتها، ويقوضها بأساليبها من الداخل، فبقدر ما أفاد من حلقة (الأنا) الحلقة الحتمية التي تدفع مفكرا ما أن يدافع عن قضية ما ليجد مبررات وجودية لنفسه، فإنه من حلقة (الهو) وجد ما هو مفيد كذلك، إذ تعلم من هذه الحلقة المجالدة والأساليب العلمية العقلية، ووجد المادة الخصبة والموضوع الثر الذي غرس فيه زرعه، إن (الهو) والغرب هو المعبد الذي عاش فيه سعيد وكان الشخص الأكثر كفرا وجحودا به.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/536

أولا: حلقة الأنا

1- الأنا الشخصية

لقد عانى سعيد من ألوان الخروج، فهو خارج مكانه، وهو خارج لغته وهويته وثقافته وجسده، وهذه المعاناة لم تأته من التسلط الاستعماري بداية، إنما أتته من العش الذي كان ملزما بتوفير الطمأنينة له، إنه الأسرة أو الأسرة الشرقية بالتحديد التي جعلته يعاني قلق الهوية أولا: (فلسطيني قاهري أمريكي مسيحي) قلق الاسم ثانيا: (إدوارد وهو اسم ملك إنجليزي وسعيد هو اسم عربي خالص) قلق اللغة ثالثا: (إذ انتزع من اللغة العربية الحميمية التي كانت الأم تخاطبه بها وألقي في جب اللغة الإنجليزية الكولونيالية) قلق الجسد رابعا: الذي حاول الأهل سيما الأب بكل ما يستطيعان أن يقولباه حسبما يريدان من وضع أقواس حديدية على رجليه إلى وضع نير على صدره، بل فضلا عن ذلك محاولتهما كبح روح جنسية تتدفق من جسد جامح.

كل تلك الإعاقات لولد ولشاب كان طفلا موهوبا ذكيا استطاع أن يحفظ عددا كبيرا من الترانيم والأغاني ويرددها قبل أن يبلغ السنة والنصف جعلت سعيدا يتجه إلى اتجاهين:

أولهما:

الشيطنة والتمرد وكسر المحرم لا سيما عندما كان يتبارى مع أخته في لعبة نزع السراويل، أو استخدام العادة السرية لاحقا.

ثانيهما:

في جنوحه إلى المتخيل أو العيش في الفانتازيا وقد زودته الكتب والأفلام والمسرحيات الشكسبيرية بشطحات الخيال التعويضي التي يصبو إليها غلام حالم، بل إنها زودت أناه بطاقات وشحنات عليا ظلّ يستنير بها طوال حياته، من كل ذلك نلاحظ أن هذه القيود الأسرية التي سيجت بها شخصية سعيد لم تستطع إلا أن تجعله يتآلف مع نفسه الباطنية على نحو ما، فأخرجته إنسانا فذا يشعر بالسلطات ويعرفها معرفة اليقين في تحولاتها الأبوية أولا والاستعمارية لاحقا.

2- الأم الحنون(الأنا/النحن الأمومية)

هيلدا الأم عانت هي الأخرى من القمع الأسري للعائلة المشرقية، فبعد خمس سنوات من السعادة، هي أسعد فترات حياتها قاطبة، اقتلعت من هذه الحياة، وزوجت من قريب لها دون إبداء رأي أو قرار.

ينتقد سعيد هذا الزواج، ويعتقد أن أمه أصيبت بصدمة كبيرة حينما تزوجت من هذا الأربعيني البطريركي عديم الجاذبية لقاء مبلغ من المال دفعه إلى أمها.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/536

إن دورانها حول محور الأب أحيانا ومراقبتها لتطورات سعيد الجسدية وتعليقاتها بتقزز حول الجنس، ونفورها من الحصول على الجنسية الأمريكية جعلها حساسة جدا، فاستمدت طاقتها تعويضيا من الأدب والموسيقى والمسرح، وهي أدوات شفاء للعالم الباطني، وبما أنها لم تستطع أن تحقق هذه الطاقات خارج البيت؛ فقد نقلت هذه الصفات بالعدوى إلى إدوارد.

1) الأم تحب الموسيقى والأدب، وتمارس مع إدوارد تمثيل أدوار مسرحية، فعن طريق الشخصيات المسرحية تستطيع أن تمارس الفعل العاطفي معه إلى درجة النشوة بفعل وسيط رمزي سمح لكل منهما بالتعبير عن ذاته المكبوتة بحرية كبيرة فأثناء قراءة مشتركة لمسرحية هاملت يتذكر جيدا وبمتعة حقيقية، أن أمه ما أن تمثل دور جيرترود حتى يعلو صوتها ويرق ويتدفق منها الكلام على نحو استثنائي 11.

"كانت قراءة مسرحية هاملت بما هي تأكيد على مكانتي عندها ... واحدا من أروع أوقات طفولتي، كنا صوتين، وأحدنا للآخر، روحين متحالفين بسعادة من خلال اللغة ... فقد كان همي، في طريقة غير (هاملتية) على نحو غريب أن أستطيع الاعتماد عليها لتكون أكثر من أم حنون تهدئ من روعي بعذوبة فاتنة، ولسنوات احتفظت في ذاكرتي بجرس صوتها الأعلى من المعتاد، وبالاتزان الواثق في سلوكها وبحضورها المبلسم بوصفها متاعا يتعين علي التشبث به مهما كلف الثمن12.

فالنص الشكسبيري يمكن أن يولد تلك اللذة المعنوية والجسدية، لكن اللذة هنا تتخذ دلالة أعمق دون شك؛ لأن الأم ما أن تمثل دور المرأة العاشقة حتى تتقمص شخصيتها؛ لتعبر رمزيا عما حرمت منه في حياتها الواقعية، وهذا التمثيل الذي يتحول إلى تمثيل عميق للدور هو ما جعل ابنها، الذي لم يقلّ عنها حرمانا وولعا بأدوار رمزية متخيلة كهذه، يتذكر المشهد بكامل حيويته العاطفية ويعيد صياغته بلغة شعرية ممتعة حقا؛ هذه اللغة التي هي لغة جسد في المقام الأول13.

وخلال السنوات الأخيرة من حياتها، وفي حمى علاجها من مرض السرطان صحبها إدوارد إلى المسرح وكم أدهشه تفاعلها مع المسرحية فيعلق:

"كأن الممثلين كانوا يلهجون بتلك الأبيات بلهجة القاهرة زمن الحرب، وقد عدنا إلى شرنقتنا الحميمية، صامتين مركزين، نتشارك اللغة والاتصال رغم الفارق في السن، ورغم أننا أم وولدها لآخر مرة، فبعد ثمانية شهور بدأت انحدارها النهائي في المرض الذي قتلها" 14

2) من الأمور التي أورثتها الأم لابنها حب المشرق، ويحس القارئ بدرجة عالية من الصدق والشفافية في العلاقة بين الأم وابنها والمشرق، فقد كانت الأم من خلال الوصف تكره أمريكيا، ورفضت الهجرة إليها والحصول

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/536

على جواز سفر أمريكي، وكانت تقدس المشرق العربي، وكم آلمها في لحظات نزاعها أن تموت في أمريكيا، لقد ورث إدوارد عن أمه السرطان والوفاء للمشرق، وبرحيله فقد الفلسطينيون والعرب أكبر مدافع عن قضاياهم في المحافل الدولية، ولقد اقتضى وفاء إدوارد أن أوصى بأن يؤخذ رماد جثته ويلقى في المشرق العربي في تواصل لا نهائي مع الأرض والوطن والمكان معانقا أرواح الأجداد والأحفاد بفلسفة تذكر بفلسفة الهندي الأحمر الذي يعتقد أن أرواح الناس البيض تسافر بعد موتها بين النجوم، أما روح الهندي الأحمر فإنها تبقى في الأرض الأم.

3-الأنا الوطنية(الأنا/النحن الوطنية)

لقد بقي سعيد أمينا شفافا مع مسألة الوطنية رغم قلق الاسم والهوية والديانة، فظل مدافعا عن قضايا الأمة العربية لأكثر من ثلاثة عقود منسجما انسجاما تاما مع طرحه النقدي في أن النص بنية وحدث، بنية جمالية فنية لكنها غير منعزلة عن الأحداث، وهذا ما جعله يتنقل برشاقة من حقل النص المسجون بلغته الجمالية إلى حقل السياسة، ورغم اعترافه أن صدمة النكسة وشخصيات مثل إبراهيم أبو لغد وشارل مالك كان لها الدور الحاسم في خوضه غمار السياسة والدخول في لهيبها، إلا أننا لا نعدم وجود عوامل أخرى من أهمها كما ذكرت سابقا تسلل حب المشرق إليه عن طريق والدته، وكذلك تجاربه الشخصية في المدارس الكولونيالية التي كانت تضطهده، وفي الحالة الفلسطينية التي تدفع كثيرا من الفلسطينيين أن يعيشوا بطريقة "بروميثيوسية" ملتصقين بقضاياهم وقضايا الإنسانية.

كما أن الشتات الفلسطيني والعيش خارج الوطن الأم جعل من الفلسطينيين، ومن سعيد حصريا، باحثين عن فكرة الوطن، فلا شيء يملأ هذا الفراغ القاتل سوى فكرة الوطن وسيلة تعويضية عن المحروم، وقضية مركزية يدافع عنها الإنسان –سيما المفكر– لتعطيه شرعية الوجود(الإنسان القضية).

كان سعيد صادقا وشفافا منذ صغره، رغم أزمات الاسم والهوية واللغة والدين، فقد تجاوز كل تلك الأزمات وتغلب عليها حتى في كبره على ما يروي. فاللغة العربية مثلا عاد يدرسها في الكبر، وكتب عنها مقالا –لأنها لغة قومه ولغة أمه التي كانت تدلله فيها "تسلم لي" "روحها للماما"(اللغة الأولى الفطرية).

أما الصدق الوطني فيمثله أوضح تمثيل ما جاء في السيرة عن الدين:

"ولأن اسمي إدوارد سعيد فقد اعتبروني مسيحيا في لبنان، مع أني إلى يومنا هذا وبعد سنوات من الاقتتال الأهلي أعترف بعجزي عن الشعور بأي تماه على الإطلاق مع الفكرة القائلة بأن المسيحية ديانة يهددها الإسلام"15.

ويقول في مقام آخر بعد الحرب الأهلية اللبنانية:

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/536

"في ما بعد، رأيت تلك الأيديولوجية المسيحية العدوانية متفاوتة جدا ومرفوضة لافتقاري ومع الجميع في محيطنا العائلي المباشر إلى أي شعور بالعداء الديني أساسا اتجاه المسلمين"16.

حلقة (الهو) أو الآخر

1- المدارس الكولونيالية (الآخر السلطوي)

"فلانيادو رجل فظ ولعل قسوة ضربه الشديد جاءت إرضاء لسيده أو لعله وهو اليهودي الشرقي المتغرب أراد بذلك إذلال التلميذ العربي، فقد سمعته مرة يقول لتلميذ أرمني يغمس لقمته في المرق لا تأكل مثل العرب على أني شعرت أن هذا أمر متوقع في زمن الحرب الذي كنا فيه. فتملكني غيظ لا يرحم وأنا أعاهد نفسي على أن أجعل حياتهم جحيما لا يطاق من غير أن يلقى القبض علي وأن أمتنع عن أية صلة حميمة بأي منهم مكتفيا بأن أنتزع منهم ما يملكون تقديمه لي بجهدي الشخصي فقط"17.

كان هذا العهد الذي قطعه سعيد على نفسه بعد ست جلدات تلقاها على مؤخرته، وذلك لأنه اشتهر بصفته مشاغبا مثيرا للاضطرابات يثرثر خلال الدروس، ويتآخى مع قادة التمرد من قليلي الاحترام للأساتذة، ويجيب بسخرية كشكل من أشكال المقاومة للبريطانيين؛ لأنهم في "فكتوريا كولدج" قطعوا صلاتهم مع اللغة العربية والتاريخ العربي وجغرافيا الوطن. كانت نقمة سعيد على المدارس البريطانية هي الأشد لما شعر به من الدونية؛ ذلك أن القوة البريطانية الكولونيالية كانت أصيبت بجراح كحيوان خطر وقابل لأن يؤذي.

المدارس الكولونيالية كانت تعتبر اللغة العربية جنحة تحاكم كل من يتكلمها بالعقاب، هذه المدارس كانت شمولية وعنصرية في نظرتها؛ لذا ذهب الأولاد تحت نبرة التمرد والخروج على السلطة إلى اللجوء لهذه اللغة، لغة محرمة للخروج على الأسياد، لغة تمرد يفاخر سعيد ويهجم بها على الأساتذة الإنجليز بالكلمات النابية دون أن يدركوا ذلك.

وبعد عدة اضطرابات أثارها سعيد في المدرسة منها حبس أستاذ في مستودع وكتابة (متع نظرك بخمسة قروش) وضرب أستاذ؛ كان القرار بطرده من المدرسة "*غادر فقط غادر سعيد لا يهمني أين تذهب غادر فقط فورا* 18.

إن هذا العداء الطفولي للمدارس الكولونيالية لهو بذرة الغراس الأولى التي لن تنفك عن التطور والنمو حتى تصبح منهجا يعادي أساليب المؤسسات الاستعمارية ويفككها كليا.

2- الأب المعادي(الآخر الاستبدادي)

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/536

الأب في وصف سعيد هو امتداد للآخر؛ فقد بدا قسيسا معمدانيا عديم الجاذبية وبطريركيا قاسيا وزوجا قامعا، كان الأب ممثلا جيدا للأبوية التي تشبه في وجه من وجوهها الاستعمار. هذا الأب حاول أن يمحو صورة الوطن الجميلة من ذاكرة ابنه بتغيبه عن الوطن أولا، وتغيب صورة الوطن عن طريق صمته المقيت عن العائلة وعدم سرده لحكايات الوطن ثانيا، وبكلامه الفج عن العرب فقد أوصى ابنه عندما هم بالدراسة خارجا أن لا يصاحب العرب لأنهم يشدونه دائما للأسفل.

قد تكون هذه النظرة رأي يمكن لبعض الناس التغاضي عنه، لكن ما لا يمكن التغاضي عنه الأسلوب الذي استخدمه الوالد ضد إدوارد، ويشبه في حد ذاته كما قلنا سابقا الاستعمار أو الانتداب الاستعماري.

فالأب يشكل المحور العمودي، وهو الذكر الرجولي بالتعبير الفرويدي يسيطر سيطرة مطلقة على البيت، فقد تزوج فتاة جميلة تصغره نصف العمر، ومارس اضطهادا على ابنه بوصفه إنسانا ناقصا لا يتلاءم مع المنظور الأيديولوجي والموضوعي للشخصية النموذج التي يرنو بها لتتطابق مع الرؤى الغربية، فالابن ناقص جسديا ومعنويا، فهو جسديا مشوه الشكل عمد الوالد لإصلاحه بشتى السبل من وضع أقواس حديدية في رجليه إلى وضع نير على صدره وهو في بداية العشرينات، والابن شخص فاشل معنويا سيما في تحصيله الدراسي يتعين ضربه، وهو فاشل حتى بالفعل الرمزي أي بالاحتلام. في إحدى المرات عندما بين شعوره بعد اللعب قال له أبوه ساخرا: "لا تنظر إلى عيون اللاعبين، ولكن أنظر إلى أنوفهم" لقد أثر ذلك تأثيرا مؤلما على شخصيته حتى أننا نفاجأ به عندما بدأ التدريس الجامعي كجزء من الدراسات العليا في نهاية الخمسينات كان غير قادر على تقديم محاضراته إلا إذا نزع النظارة عن عينيه؛ لأن غياب صورة الطلاب ووجوههم من أمامه وذهاب معالم حدودهم هو ما كان يكفل له التغلب على الخجل والتردد، وحينئذ فقط يشرع في تقديم محاضراته، وظل أمر تجنب الآخرين ومواجهتهم ملازما له، فعيونه يجب أن تتحاشى عيونهم19.

والخطورة أن إدوارد صار يصدق هذه الالتباسات وصار يتعامل معها أحيانا بوصفها رؤى مركزية عقلانية.

وكرد طبيعي لكره الإنسان لكل ما هو أبوي تسلطي فلقد دفعت تسلطية الأب في نهاية المطاف إدوارد أن يقوم بقتل الأب "أوديبيا" بالرمز السيري، فقد نعته بنعوت سلبية وبين أن عسكريته التي أدعاها باطلة، فلم يشارك بالحملات العسكرية إنما كان عضوا من أعضاء التموين فقط، وعن طريق السرد كذلك أوضح الصورة النمطية للمرأة العربية التقليدية التي يحاصر جسدها وتقمع رغباتها وتشوه تمثيلاتها لذاتها الإنسانية بعد أن تتمثل قيم المجتمع الأبوي وأفكاره وثقافته الذكورية المتمحورة حول الرجل وخاصة في إطار أسرة مسيحية متدينة تنفر من الجنس، وتعتبر الخطيئة الأصلية مسؤولية المرأة في المقام الأول20.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/536

عن طريق وصف الأب جسديا بأنه صاحب صدر برميلي نافر يوحي بالعصيان، ونفسيا بأنه شخصية تقليدية متسلطة مادية، وعن طريق الإيحاء بكذبه، وعن طريق الوصف الطيب للأم التي بقيت حتى في فراش الموت تقول: "يا طفلي المسكين" أما الأب فحين حضرته الوفاة أشاح بوجهه إلى ناحية الحائط دون أي صوت مفارقا الحياة كما أشاح بوجهه سابقا عندما كان إدوارد صغيرا، فقد سقط على الأرض متعثرا وأصيب بالجراح وإذ نادى سعيد أباه مستغيثا التفت إليه الأب غير مكترث ثم مضى في طريقه دون أن يمد العون له. عن طريق ذلك كله نلمح حقدا عاطفيا على الأب البطريركي جعل إدوارد حساسا بشأن الأبوية السلطوية بكل أشكالها وتمثيلاتها، فأعمل قلمة ولسانه في الاستشراق إعمالا حادا واضعا إياه كله في سله واحدة دون رحمة.

لكن لا نريد أن نغفل حقيقة خفية مغيبة في هذه التربية الصارمة والعقلية الأبوية غير العاطفية التي لولاها لما استطاع إدوارد أن يكون مفكرا مجالدا على هذه الشاكلة، فهي التي علمته نبرة المقاومة والتحدي بدلا من التآلف الأمومي مع الأشياء، فالأب الذي ترك ابنه متعثرا على الأرض لم يكن في رأيي من فراغ، إنما هي تربية وإن كانت قاسية وربما لولا تلك التربية الصارمة من الأب لما كان إدوارد سعيد ما كان.

3- الغربي(الآخر الثقافي الحضاري)

لعل قارئ أعمال سعيد النقدية والأدبية (من سيرة، مقالة) يدرك أن منطلقاته ومنطلقات المفكر الفلسطيني الآخر هشام شرابي تنبثق من مشكاة واحدة، فشرابي فكك بطريركية المجتمع العربي معملا مبضعه النقدي الاجتماعي فيها،أما سعيد فقد أعمل هو الآخر مبضعه النقدي بكل ما يتعلق بالثقافة الاستعمارية بوصفها حالة شمولية تمارس أبوية ثقافية وعسكرية على العالم عن طريق التسلط والكذب والخداع وتحريك الجيوش الجرارة. ولم يسلم سعيد نفسه من هذا الخداع، فقد لخصت صحيفة "الدلي تلغراف" البريطانية اليمينية في شهر آب 1999 ذات الميول الصهيونية مقالا كتبه كاتب يهودي يدعى "جستن رايد فاينر" يدعي فيه أن إدوارد سعيد ليس فلسطينيا، ولم يقم في مدينة القدس يوما أو يلتحق بمدرسة سان جورج المقدسية، وقد ذهبت الصحيفة البريطانية استنادا إلى ما قاله "فاينر" إلى أن أستاذ الأدب الفلسطيني قد زيف قصة حياته، وقد قام فاينر للكشف عن هذا التزييف بالبحث في حياة سعيد وأهله مدة ثلاث سنوات، فسأل -حسب زعم الصحيفة- ما يقارب المئة من الأشخاص عن سعيد وعائلته واستخدم لذلك عددا كبيرا من الباحثين المساعدين للقيام بهذه المهمة الخارقة 21 بعد ذلك كبرت كرة الثلج فنشرت صحيفة نيويورك 26 آب 1999 افتتاحية كتبها ابن صاحب مجلة "كومنتري" قارن فيها بين سعيد و"منتش" الماركسية الغواتيمالية الحاصلة على جائزة نوبل للسلام عام 1992 والتي يقال إنها اختلقت بعض التفاصيل في سيرتها الذاتية، ثم نشرت مقالة فاينر في كومنتري، وقام سعيد

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/536

بالرد على ذلك واصفا فاينر بأنه مدع يهدف إلى تحقيق الشهرة على حساب شخص مشهور22. وكانت عملية التزوير كلها معدة –كما يذكر سعيد في مقدمة خارج المكان العربية- بهدف سياسي محدد هو إظهار أنه لا يمكن الوثوق بالفلسطينيين عندما يتحدثون عن حق العودة، فإذا كان مثقف بارز يكذب، فما بالك بما قد يقدم عليه الناس العاديون من أجل استعادة أرضهم تلك الأرض التي لم تكن لهم أصلا (كما يدعون)23.

كما تظهر الحملة المنظمة العلاقة الثقافية الحميمة بين المحامي الإسرائيلي (فاينر) وبين المؤسسات الإعلامية البريطانية والأمريكية التي تتفق على أمر ثقافي أبوي واحد بينها وهو أنه لا يجوز للفلسطيني أن يمتلك حق الشعور والبكاء على أطلال الوطن، فمشاعر الضحية ملكية فردية للشعب اليهودي فقط.

لقد كان كتاب "خارج المكان" بصورة أو أخرى ردا عنيفا على الآخر وعلى ثقافته الأبوية الاستعمارية؛ ولذا قوبل بهذه الجبهة الحامية الوطيس من المؤسسات الغربية وذيولها الصهيونية.

حين يفقد الإنسان المكان يبحث عن مجازاته وظلاله ليسكن فيها وإدوارد سعيد الذي فقد حقائق كثيرة لم يتخلّ عن مجازاته وتمسك بها بالعروة الوثقى؛ لأنه يعرف أن الحقائق يعاد تصنيعها في أرض المجازات، وكانت سيرة سعيد عن القدس وحاراتها وأزقتها ومرموزها إحدى مجازاته الكبرى، وبضاعة شرقية كتبت بحبر غربي، ورد سردي مجازي منتم على أبوية تبتدئ من المدارس الكولونيالية ولا تنتهي بمجابهة المستشرقين، والمؤسسات الإمبريالية، والصهيونية، ومن لف لفّهم.

الهوامش

[1] –إدوارد سعيد: خارج المكان، ت: فواز طرابلسي، بيروت- دار الآداب – ط1 2000

[2] –ينظر ميشيل فوكو: دروس ميشيل فوكو، ترجمة محمد ميلاد، الدار البيضاء–دار توبقال للنشر–ط1، 1994،ص33

[3] –عمر أوكان : مدخل لدراسة النص والسلطة–أفريقيا الشرق–ط2، 1991، ص32

[4] – ينظر سعيد محمد رحيم: بين إدوارد سعيد وفوكو، مجلة الموقف الثقافي، بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام- العدد17، 1998،ص48- ص54

[5] –حفناوي بعلي: آفاق الأدب المقارن العالمية في تصور الناقد إدوارد سعيد، عالم الفكر، العدد4 مجلد 35، ص 18

[6] –إدوارد سعيد: الاستشراق المعرفة. السلطة. الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت–مؤسسة الأبحاث العربية–ط5، 2001،ص 71

[7] –المصدر نفسه، ص 39

[8] –محمد شاهين :إدوارد سعيد راوية الأجيال، بيروت–المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط1،2005،ص75-77

[9] – إدوارد سعيد : خارج المكان،،ص19

[10] –المصدر نفسه،ص19

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/536

[11]– معجب سعيد الزهراني: الجسد الخاص وتشكل الهوية في خارج المكان، مجلة فصول العدد 64، صيف 2004،ص 237.

[12]– إدوارد سعيد: خارج المكان، ص 81

[13]– معجب الزهراني: الجسد الخاص وتشكيل الهوية في خارج المكان، ص 237

[14]– إدوارد سعيد: خارج المكان، ص 82

[15]– إدوارد سعيد: خارج المكان، ص 213

[16]– المصدر نفسه، ص 214

[17]– المصدر نفسه، ص 235

[18]– إدوارد سعيد: خارج المكان، ص 261

[19]– محمد عبد الرازق عبد الغفار: الألم بين الذاكرة والتاريخ، مجلة البحرين الثقافية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 28، 2001، ص 148

[20]– معجب الزهراني: الجسد الخاص وتشكيل الهوية في خارج المكان ص 232

[21]– فخري صالح: إدوارد سعيد وحكاية مقالة فاينر، مجلة الثقافة البحرينية، 28، ص 125، لمزيد من المعلومات ينظر على المجلة نفسها مقالة فاينر "بيتي العتيق الجمل" وأكاذيب أخرى اختلقها سعيد، ترجمة فخري صالح.

[22]– فخري صالح: إدوارد سعيد وحكاية مقالة فاينر، ص 126

[23]– إدوارد سعيد: خارج المكان، ص 10

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/536